الفيلسوف أمين الريحاني

قولان له في البلاغة

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

أبعث إلى الفيلسوف الأستاذ أمين الريحاني بكتابي « كلمة في اللغة العربية » ، وهو الخطبة التي خطبتها في (دار الرابطة الشرقية) في القاهرة في اليوم الأول من ذي القعدة سنة ١٣٤٣ ، فتجيني منه رسالة في يناير سنة ١٩٢٦ (٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٤) يقول فيها :

« سيدي الأستاذ إسعاف النشاشيبي (دام فضله)

وصلني كتابك (كلمة في اللغة العربية) ، قرأت (الكلمة) كلها متنها وشرحها فخيل إلي وأنا في رياضها وأدغالها ، وأغوارها وأنجادها ، ودهنائها ومقاليها (اللفظة بدوية وأظنها صحيحة)[1] أني أعيد السياحة في البلاد العربية . وما وجه الشبه ؟ إن الجمال اللغوي جمالك لمثل الجمال البدوي ، وإن الفخامة في ألفاظك لمثل الفخامة في صوت ابن البادية ، وإن الروح في مقاصدك لمثل العظمة في خطواته . وكلها يا سيدي في الكتاب وفي البادية مثل الوجوه (حال يحول) . نعم ، إن هذا الأسلوب في الأدب مثل ذاك البدوي في الحياة ، هو مظهر عجيب يسترعي الأنظار ، فيدهش ، ويطرب ، ويحزن معاً . ولما ذا ؟ لأنه زائل . أحببت البدوي (والله) ، وكنت معجباً به ، ولكني لا أستطيع ولا أحب أن أكون مثله . وأحببت (كلمتك) ، وكنت وأنا أطالعها معجباً بها . ولكني لا أستطيع ، ولو أحببت ، أن أكتب مثلها . لو كان لي أن أسوح في البلاد العربية بعد خمسين سنة لما عرفت ، على ما أظن ، صديقي البدوي وقد تحضر أو تمصر . ولا أظن أن هذا الأسلوب أسلوبك يكون مألوفاً أو معروفاً بعد خمسين سنة . والحكم للمستقبل ، فقد يحكم علي وعليك معاً . ولكننا في غير الأسلوب متفقان . إني مكبر أدبك ، محترم علمك ، مجيب دعوتك للمحافظة على روح اللغة والصيغة العربية فيها . وأظن أني من المحافظين ، رغم تجددي المخيف ، إذا اتخذت من ابن الأثير[1] ، وهو اختيارك ، مثالا أنسج عليه . ولكنك غاليت في حب القديم ، غاليت يا رجل ...

إذا كان المثل الأعلى الذي تنشده يقطع الحبل بيننا ف (هنريك ابسن ونيتشه[2]) يصلانه ويوثقان العروة فيه .

والسلام عليك من (القابع[3]) في داره ، البعيد عن (شجرة البغي[4]) المخلص

أمين الريحاني

ثم نتجادل بعد رسالته هذه في شهر رمضان سنة ١٣٤٤ في جريدة (الميزان) ، وهي صحيفة أدبية كان الأديب النابغ الناقد الأستاذ أحمد شاكر الكرمي — رحمة الله عليه — ينشرها في دمشق :

« زين الشباب أبو قراس م لم يتمع بالشباب »

ولقد فقد الأدب بغيبة أحمد شاكر الكرمي خيراً كثيراً كان يرتجيه من ذاك النبوغ[5]

أخبرني مدير مدرسة في مدينة الناصرة أنه سأل الأستاذ الريحاني حين مر بها عن سبب (المناظرة بينه وبين النشاشيبي) ؟ فقال : « أردنا أن نعلم الناس كيف يتناظرون » . ولهذا الجواب قصة أدع ذكرها اليوم ، وفي الطبيعة الأخيرة للريحانيات إرشادة إلى شيء منها . وهذه نتف مما قلته في الجدال :

« دع ذا ، ونجيء الآن إلى قول الأستاذ : إن الإنشاء فن ،

---

(١) قلت : بدوية عصرية ... وفي رسالة الأستاذ ألفاظ تركت كما وردت .

(١) يشير إلى قول له في كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) أوردته في (الكلمة) .

(٢) يشير الأستاذ الريحاني إلى أشياء رويتها لفريدريك نتشه وإلى مقالات كتبتها في سيرة هنريك ابسن وآرائه سنة ١٩١٣ م في جريدة (المهذب) لصاحبها الخوري بولس الكفوري (رحمه الله) وكانت هذه الجريدة تنشر الأقوال النشوئية والحرة وما زاد على ذلك ...

(٣) يشير إلى قول لشاعر الجرمان الأعظم (غوته) رويته في (الكلمة) وهو : من أراد أن يكون حراً فليقبع في بيته .

(٤) يشير إلى مثل رويته في (الكلمة) وهو : (الناس شجرة بني) قال الميداني : وإنما جعلهم شجرة البغي إشارة إلى أنهم ينبتون وينمون عليه .

(٥) كان المأسوف على شبابه وآدابه قد بعث إلي من دمشق سنة ١٩٢٢ م برسالة مشتملة على قول في البلاغة بليغ مبين . وسأتحف الأدباء بها إن شاء الله تعالى .

والإفراط فى الكلف بالفن خسران . وإن اللغة ذريعة واتخاذ الذريعة للقصد المنشود — ضلال . وقل له بعد تحية ثانية :

الحق أن اللغة لم تك إلا ذريعة ، وما هى إلا ابنة لغة الذى هو اليوم أدنى من الإنسان (وإن لم يرأدسن الإنسان أعلى منه[1]) ولكن المرء قد تفنن فى هذه الذريعة (كما تفنن فى ذرائع الشر...) فجاء منها الفن : جاء الشعر ، وجاء النثر ، وجاءت تلك الصفحات العبقرية . وراح ذاك الفن يتهادى مع سائر إخوته من الفنون الفتانة . والرقص من هذى الفنون . وإن الرقص لفاتن ، إن الرقص لفتنة ، وقد أضاف الدين كاتب أفرنجى ملعون إلى تلك الفنون ..

فإن قلنا : إن من اللغة فناً وجب أن نحتفظ بذاك الفن ، وأن نعنى به عنايتنا بغيره من الفنون ، وأنه لأحق بالترجيب والاهتمام به من غيره . وإن كان فن الموسيقى أو المصور مما يهذب نشء الأمة فالنثر القرآنى أعنى النثر العبقرى والشعر العلوى[2] أثرهما فى تهذيبهم أكبر

وإن عددنا الفن (كما عده كاتب أفرنجى يوم هاجت سرقة تلك الصورة La Joconde قومه) سخافة أو هذراً ، ورحنا نقول مع الزمخشرى : (الفنون جنون والجنون فنون) . جاز لنا أن نعد كل شىء فى الوجود سخيفاً ، وألا نجد لهذا الكون معنى، ولزمنا أن نبادر إلى الانتحار ، وندع النارتنى من بناها... لا ، لا ... إن هذا الحسبان خسران ، والرأى الحكيم الرصين أن نرى الجيد جيداً والجميل جميلا وأن نبتهج بمشاهد الكائنات مع المبتهجين معرضين عن مقالات شوبنهور وسائر المتشائمين منشدين فى كل حين :

« تمتع من الدنيا فإنك فانٍ »

« تمتع من شميم عرار نجد »

و (الدنيا — كما قال جار الله — عُمرى[3] ولا خلود إلا فى الأخرى) .

(١) يقول ادسن : إن الإنسان لم يزل فى الأفق الشنيزى ...

(٢) قال الزمخشرى : غنى النعمان بشىء من دالية النابغة فقال : هذا شعر النابغة ، هذا شعر علوى أى عالى الطبقة ، وقيل من عليا نجد .

(٣) من أعمره الدار إذا قال هى لك عمرك ثم هى لى (الأساس) .

فن اللغة فن ، فى الإنشاء فن ، فلا تألن الفصيح البليغ فى المقال أن يذر فصاحته وبلاغته وذا الفن أن يهجرفنه ، وينزل من عليائه إلى فنائه ، ويزايل عزلته ، ويماشى جماعته ، ويتبذل أسلوبه وهو يستطيع صيانته ، ودعه يفتن فى الإنشاء كيف شاء .

إن المتفنن فى الناس قليل ، وقد مات بالأمس (أناطول فرنس) ولا خليفة فى قومه له . وهذى حالة لا يصل إليها كل ساع فلا تخف من أن يكثر المتفننون ... وهؤلاء الرهط[1] فى الأمم هم سلوى المكروبين ، ومهذبو الطالبين ، وهداة المتأدبين ، وموقظو الهاجدين ، وقائدو الثائرين ، وبكلامهم تصقل الكتاب قرائحها » .

« كانت اللغة فجاء منها فن ، وهو لا يكون فى كل ضرب مما تخطه الأقلام ولن يكون . وأهله اثنان: الشاعر والأديب ولا ثالث لهما ، فدعهما يحدوان مع الحاد ، ويهيمان فى كل واد .

وفضيلة كلام (الشاعر والأديب) أو هذين المتفننين أو الفنانين[2] هو هذا الجمال الذى تلاقيه فيه ، ومع الجمال الوضوح كل الوضوح ، بل ليس الحسن إلا الوضوح . فرغبى ومرغب كل من يتراءى برأيى أن نصون هذا الرونق وهذه الديباجة كما يصون الكريم ديباجتيه فلا يبذلها ... وقد أعلن الأستاذ الزيانى فى مقاله أنه يهوى الديباجة ، ولا ريب فى ميله هذا ، فكل شىء تنوقت الطبيعة فى تجويده يستهوى العاقل . ولن ننشد إن شاء الله فى يوم بيت المتنبى الذى أوما الأستاذ إليه فى كتابه :

زودينا من حسن وجهك مادام (م) فحسن الوجوه حال تحول

فلن يحول جمال العربية ، ولن تزول ديباجتها ، وإذا استطاع القوم

(١) فى التاج : الرهط عدد يجمع من ثلاثة إلى عشرة أو من سبعة إلى عشرة . قال ابن دريد وربما جاوز ذلك قليلا . وفى الصحاح الرهط ما دون العشرة من الرجال لا تكون فيهم امرأة ..

(٢) مبالغة بنيت من فن ، وفى اللغة فن وتفنن وافتن وقد ظن أحد الفضلاء أن ليس فى العربية تفنن لأن المجد (رحمه الله) لم يذكرها فى (القاموس) وهى فى كلامهم وفى (اللسان والتاج) وفن فى (الفائق) ولم يؤخذ (الفنان) من الذى له فنون فى العدو الركض ... وهبه أخذته فهل فى الأمر من حرج ؟ وخطب (الفنان) أهون من خطب (السيد) وأصل هذه اللفظة فى اللغة معلوم ، ولا أحب ذكره اليوم هنا حتى لا يبرطم مبرطمون .. إن الناس ليسخطون ويلعنون حين يبحث الباحثون — والعلم الحق لا يرأف — فى أصول الآدميين وأنسابهم وأصول مقالاتهم ولغاتهم . .

(المبرطم) المقطب المتغضب لكبره المتخاوص فى النظر .

في الغرب أن يجملوا بالكهربا الشنيعات ، فلن نعجز في الشرق عن الاحتفاظ ببهجة المليحات ... »

« يجعل مقتبس علم غربي يترجم مبحثاً أو يلفق قولا وهو لم يتخرج على أستاذ قادر ، ولم يقرأ كتاباً واحداً ، ولم يعرف أسلوب علمه اللغوي ، ولم يقف على ألفاظه ولا على بعض ألفاظه ، وتلفيه يزخر[1] وهو يكتب زخيراً ، ويلعن العربية التي جهلها لعناً كبيراً ، ثم يطرح بجهيض[2] يعمي الناظرين ، فإذا عميت جهيضه لا حاك ، وتهدم على اللغة بالتنقيص »

« الأستاذ الريحاني فاضل نابغة تسكب عن طريق التقليد ، وأسكرت نفسه الرق العقلي فكدحت في تحريرها ، فلما حررها لم يستبد بخيره ، وأراد أن يشركه في الخير غيره ، فدعا قومه إلى حريته ، وانتحال عقيدته . ثم أبصر الأستاذ الغرب يطير ارتقاء وقومه العرب قد ألفوا الحضيض « آلف للحضيض فهو حضيض » كما قال أبو تمام ، فشق عليه أن يشهد ذل جهلهم وقد اعتز بالعلم خصمهم وآكلهم ، وتحقق أن الذي أقعد في العلياء الغرب هو علم الغرب فنادى إلى إيثار ذلك العلم ، وأشفق أن يعوقهم الاهتمام بالمهم أو غير المهم عن طلب الأهم فقال لهم : اجتزئوا من المؤنة اللغوية بزاد المسافر ، فلن يعدل وهذا قصده . والحق الذي يدريه الأستاذ الريحاني ، ولكن حرصه على الذي رآه أحق بالتقديم قد حمله على أن يتناساه هو أن الانتباه الأدبي في الأمم يسبق الانتباه العلمي ، فهذا بناء وذاك أساس . وإن الأمم العربية اليوم هي في وقت الترجمة . وعند الغرب علوم كثيرة ومباحث فيها دقيقة . وفرض عين أن تنقلها العربية وأن يفقهها نشؤها ، ولن تفهم ولن تفيد حتى تصح ترجمتها ، ولن يستطيع احتواء تلك العلوم ومعانيها إلا اللغة القرآنية العلمية ، إلا اللغة الصحيح تركيبها الكثير لفظها التي ظل العلم القديم يلينها ويوسعها ويصقلها أحقاباً . وإذا لم توصل لغة علم اليوم بلغة علم الأمس ويستظهر بهذه فلا علم في هذا الزمان عند العرب . ومن ظن أن اللغة العامية وهذه التي هي فوق العامية تقدران أن تعيا علوم الغرب وتضم عباراتهما تلك المعاني الحديثة أو الجديدة فظنه (والله) عجيب ! »

* * *

(١) زخر وتزخر وهو اخراج النفس بأنين

(٢) أصله الولد السقط .

ثم أبعث إلى الفيلسوف بكتابي « البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقي » وقد طبع سنة ١٣٥١ ، فتجيئني منه رسالة في ٢٦ شباط سنة ١٩٣٣ ، وقد ظهرت في (الرسالة الغراء) ٢٦٩ في ٣ رجب سنة ١٣٥٧ في الصفحة ١٤١١ من السنة السادسة

ومن قرأ رسالة الأستاذ الريحاني الثانية رأى أنه (قد استطاع أن يكتب عربياً عبقرياً ويجاري البلغاء) ، وأنه قد آمن بـ (بالكلمة) وصدق بالبلاغة وفضيلتها وجمال القول وجودته وبكلام الإمام الرازي : « رب كلمة حكيمة لا تؤثر في النفوس لركاكة لفظها » ، فنسخ المذهب الجديد للفيلسوف مذهباً قديماً .. ولو لم تفجع به العربية — وأعظم بفجيعتها بـ (بالأمين) — وعاش حتى اطلع على « دفاع عن البلاغة » لازداد إيمانه ويقينه ، وأيد (صاحب الرسالة) تأييد أنصاره .

* * *

(الزيات) إذا نثر ، مثل (شوقي) إذا شعر . ولقد أعطى الله مصر في هذا العصر إمارة الشعر وإمارة النثر . ولو بعثت (فلوبير) القائل : (أهون على المرء أن يُقنطر[1] ، وأن يكن في قصر بندقي (قنيسي) منجداً من أن ينشئ صفحة واحدة عبقرية) وحذق العربية ، لأضاف إلى قوله هذا هذه الكلمات : (مثل الصفحات ، التي ينشئها الزيات) .

محمد إسعاف النشاشيبي

(١) قنطر الرجل ملك ما لا كثيرا كأنه يوزن بالقنطار .

الدقة ، والسرعة ، والنظافة

والرخص ، واعتدال الأسعار

كل هذا تجدونه في

مطبعة الرسالة

وهي مستعدة لطبع الكتب والمجلات العربية